تمهيد

نظرة موجزة علي رحلة ما قبل وداع الحياة

بهذه الكلمات المثيرة ... والعبارات الحصيفة ... والأسلوب البليغ ... والسرد المبهر ... والفكر الثرى الشيق الممتع ... يذكر دكتور نولاند فى كتابه هذا فى تأملاته الثاقبة فى أحرج لحظات العمر وأكثرها حساسية ... وأعمقها دفئاً وطوفاناً ... وأقصاها مسكنة وإذلالاً ... وبكل تقدير وإجلالاً نقدم عرضا لقراء العربية بسرد خلاصة فكره ... مواقفه ... تأملاته ... طموحاته ... فلسفته ومدى تأثره وانفعاله بمشاعر فياضة فى التسلل داخل نفس الإنسان (بنى البشر)... فى مختلف مواقف حياته ... وخاصة أكثر هذه الأوقات تفرداً ... إذ هى مزيج فريد عجيب من حصيلة الفرد ... من الحكمة والفلسفة والنظرة الثاقبة ... والضعف والهوان ... والذل والإنكسار ... ورحلة العمر وما بها من عطاء ولحظة ينزوى فيها إلى الفناء ... والحياة بكل ما منحت من مباهج وحلاوة وثراء ... أو نضال وكفاء وشقاء ... رحلة عمر مديد أو غير مديد ... نهاية أجل بها تعيس أم سعيد ... ولكنها هى حصيلة الأيام والشهور والسنين ... رحلة زمن الحياة ... وآخر الحياة ... مرض ... عذاب ... شجن ... وأنين فى هذا الصدد يقول دكتور نولاند :

« ينصب معظم إهتمامى على الكون الدقيق أكثر من الكون الرحيب . كيف يحيا الإنسان على الأرض ، هو ما يثرى تفكيرى أكثر من كيف يموت النجم فى السماء . كيف تشق سيدة طريقها عبر العالم بسلام أفضل عندى من كيف يندفع المذنّب فى مساره بين الكواكب ... وكيف يتجلى إبهار الخالق فى قدرته وعظمته فى خلق كل منا متفرداً يثير مشاعرى أكثر من عظمته فى خلق السموات والأرض . إن الحالة أو الكيفية الإنسانية هى فى صيغتها سر غامض يستولى على مشاعرى وكل إعجابى ، أكثر من الكيفية أو الأحوال الكونية .

ولفهم الحالة الإنسانية ، كان عملى المتواصل طوال حياتى . وأثناء تلك الحياة التى هى الآن فى عقدها السابع ، حصلت على نصيبى من الإخفاقات .

وكم بهرنى هذا المؤلّف ... لذا أتشوق كثيرا إلى تقديمه وعرضه ضمن هذه السلسلة .

أ.د. سميرة احمد سالم

obeikandl.com

تأملات فى الفصل الأخير من الحياة

كيف نموت ؟!

شروين نولاند

مقدمة :

يشتاق كل امرئ إلى معرفة أدق التفاصيل عن حالة الفرد منا فى لحظاته الأخيرة عند وداع الحياة ، ومع ذلك فقليل منا من يستهويه الحديث فى هذا الموضوع . وسواء كان شغفنا الشديد لمعرفة الأحداث المرتبطة بأمراض نهاية العمر ، أمـا كنا نفضل معرفـة ذلك من خلال ما يحدث لشخص عزيز علينا دهمه مرض قاتل ، أم بعيدا عن كل ذلك بدافع الحساسية المفرطة والمثيرة التى نشترك فيها جميعا تجاه الموت ، فإننا لا نقاوم الإصغاء بلهفة شديدة إلى الأحاديث والأفكار والأخبار المتعلقة بنهاية الحياة . ويظل الموت بالنسبة لمعظم الناس سرا خافيا ، محركا للمشاعر ... للعاطفة ... للسلوك ... وأيضا للخشية والفزع .

إننا نميل بدوافع مثيرة لا تقاوم إلى الأمور المخيفة التى تحرك مشاعرنا بشدة ، فنجذب نحوها بغريزة فطرية ، تصدر عن بواعث الإحساس بالرعب عند الخطر ، وكما أن الفرق قد يكون بسيطا فى الإحساس بالإشمئزاز متقارباً بين حشرات العته ولهيب الحريق ... وكذلك تكون هذه المشاعر بين حياة الفرد ونهاية أجله المحتوم .

ليس بمقدور أحد منا أن يساير فكرة فى تصور حالته عند الموت ، فى تخيل مرحلة اللاوعى الأبدى ، حيث لا شعور ولا نفس ، وإنما ببساطة شديدة : جدب وخواء .. لا شئ . ويبدو أنه أمر يختلف عن «اللاشئ» الذى يسبق الحياة» .

الموت الحديث

وكما هو الشأن فى كل ما يلوح من خوف مغاير ، وكل ما يظهر من إغراء مناظر ، فإننا نجتهد فى البحث عن وسائل لإنكار سطوة الموت وقبضته الباردة التى يحكم بها السيطرة على فكر المرء مثل ما يفعل بجسده . إن إحكامه الصارم الدقيق ، واقترابه الدائم مع وطأته الثقيلة ، كل ذلك كان ملهما لاتخاذ أساليب تقليدية نحاول بها – عـن وعى أو بدون وعى – إخفاء حقيقته ، مثلما نفعل فى الحكايات الشعبية ، فى الاستعارات الأدبية ، فى الأحلام .. وحتى أيضا فى المزاح والنكات . ثم أضفنا شيئا جديدا لأجيالنا المعاصرة : لقد ابتكرنا طريقة الموت الحديث .

إن الموت الحديث يتخذ مكانه المفضل فى المستشفى الحديث ، حيث يمكن إخفاؤه وتطهيره سريعا من آفته العضوية المسببة (للمرض) ، ثم فى النهاية يغلف وفقا للدفن الحديث . ثم نزعم بعد ذلك أنه باستطاعتنا ، ليس فقط إنكار سلطان الموت، بل والطبيعة أيضا ! إننا فى واقع الأمر نخفى وجوهنا عن وجه تلك النهاية . غير أننا

obeikandl.com

مازلنا نبسط أيدى الاستسلام بعض الشيء ، إذ أن هناك شيئا فى داخلنا يعجز عن مقاومة نظرة مختلسة .

أننا نتقمص فى حياتنا اليومية مشاهد درامية نؤدى بها دور المشفق من رؤية شخص محبوب مريض على حافة الموت . وننجح فى أداء تلك الأدوار ، لدرجة أنها غالبا ما تكون كافية لتدعيم توقعاتنا . وأصبح الإيمان بالقدرة على أداء مثل هذه المشاهد تقليدا متبعا لدى علماء الغرب ، الذين قدروا منذ قرون مضت قيمة الموت الحسن ، باعتباره منجاة للروح ، وأنه ارتقاء لخبرة الأسرة والأصدقاء ، ومجّدوا ذلك فى الأعمال الأدبية وفى المصّورات والرسوم والتماثيل التى تدور موضوعاتها حول «فن الموت» .

فن الموت (الموت الجميل)

فى الأصل ، كان «فن الموت» دينيا خالصا ، ومحاولة روحية . وقد وصفه فى القرن الخامس عشر الميلادى رجل الطباعة «ويليام كاكستون (W. Caxton) بأنه : «أداة بارعة لتقبل الموت على أنه تصحيح لنفس الإنسان» . ومع الوقت ، تطور هذا الفن داخل مضمون «الموت الجميل» وكأنه بحق الطريقة الصحيحة للموت . لكن «فن الموت» فى وقتنا الحاضر لم يعد سهلا ميسورا بسبب محاولاتنا فى الإخفاء والمعالجة الصحية – وخاصة الوقائية – والتى نتج عنها أمثال ما نشاهده من «سرير الموت» الذى يوجد متواريا فى بعض الأماكن المتخصصة كأقسام العناية المركزة ، وغرف الطوارئ ، ومعاهد بحوث طب الأورام . لقد أصبح الموت الجميل أسطورة متعاظمة . وجانب منه فى واقع الأمر كان دائما أسطورة ، إلا أنها لم تبلغ مطلقا ما بلغته اليوم . إن العنصر الرئيسى فيها متعلق باستثارة الرغبة فى مثالية «الموت فى كرامة» .

الموت فى كرامة

منذ وقت غير بعيد ، رأيت فى مكتبى بالعيادة الطبية محامية تبلغ من العمر حوالى ثلاثة وأربعين عاما كنت قد أجريت لها منذ ثلاث سنوات مضت جراحة متعلقة بسرطان مبكر فى الصدر . على الرغم من أنها تخلصت من المرض ويتوفر لديها كل مقومات الشفاء الدائم ، إلا أنها بدت – فى ذلك اليوم – شديدة الاكتئاب . وفى نهاية الزيارة سألتنى عما إذا كان الوقت يسمح بالحديث قليلا معى . ثم شرعت فى وصف حالة وفاة أمها مؤخرا فى مدينة غير بعيدة ، بسبب نفس المرض الذى أصابها هى والتى شفيت منه يقينا أو ما يقرب من اليقين . قالت :

«أن أمى ماتت بعد طول احتضار . ورغم أن الأطباء بذلوا جهدا كبيرا فى محاولاتهم معها ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا الأمور سلسة بالنسبة لها : لم يحدث شيء مما كنت اتمناه لها من نهاية هادئة . لقد أحسست أنه كان من

obeikandl.com

الأفضل لو تكلمنا معا – هى وأنا – فى حديث روحى من أحاديث النفس عن حياتها وذكرياتها لكن هذا لم يحدث مطلقا لأنهم احتجزوها فى عزلة تحت العناية المركزة . ما أكثر ما عانت من آلام . وما أكثر ما تعاطت من عقاقير ومسكنات مخدرة ثم انفجرت ثائرة باكية وهى تقول : دكتور نولاند ، إن موت أمى كان خاليا من الكرامة !

بذلت جهدا كبيرا مع زائرتى تلك لكى أقنعها بأنه لم يحدث شىء غير عادى بالنسبة للحالة التى ماتت عليها أمها . كما أنها لم ترتكب خطأ أو تقصيرا حال دون أن تجرب أمها ذلك الموت «الروحى» أو «النفسى» بالكرامة التى كانت تريدها لأمها . حاولت أن أخفف عنها حالة الاكتئاب التى تعقب اليأس بعد أن فشلت جهودها وتوقعاتها فى تحقيق تلك الرغبة قبيل رحيل أمها . واجتهدت أن أوضح لها أن الاعتقاد فى احتمال وقوع الموت فى كرامة هو واجبنا نحن (الأطباء) والأسرة والمجتمع أيضا ، وذلك بمحاولة التعامل مع الحقيقة التى مؤداها أننا جميعا عرضة لتكرار سلسة من الأحداث المهلكة تستلزم بالضرورة وبحكم طبيعتها تمزق إنسانية المرء عند الوفاة . وفى حالات كثيرة – وبصراحة وصدق – لم أر قدرا كبيرا من الكرامة فى الطريقة التى نستقبل بها الموت (فى غرف العناية المركزة) .

إن الفشل فى توفير الكرامة الحقيقية يأتى عندما تنهار أجسامنا ، وتخفق فى التماسك والإتزان وكما قد يمنح الله تفرد المرء فى شخصيته ... قد يمنحه الله أيضاً تفرداً كريماً لنهاية أجله المحتوم ... وهذا التوافق السعيد بين الحياة الدنيا والنهاية الحسنة نادراً ما يحدث فى هذه الحياة ... وقد لا يمنحه الله إلا لقليل من البشر .

لقد كتبت هذا الكتاب لكى أُفند الوهم أو الأسطورة التى تغلف حالة الموت . لست عازما على شرحها أو تصويرها كمسلسل مليء بالرعب والآلام تفضى إلى تحليل يثير الاشمئزار والغثيان ، وإنما أقدمها فى حقيقتها الطبية البيولوجية ، كما رآها أولئك الذين هم شهود عليها ، ومثلما أحس بها أولئك الذين خاضوا تجربتها . إن المناقشة الصريحة وحدها حول كل التفاصيل وأدقها عن تداعيات الموت هى التى ستتيح لنا أفضل تعامل مع تلك الظواهر والسمات التى تفزعنا أكثر من غيرها .

بمعرفة الحقيقة ، وبالاستعداد الدائم لها ، نخلّص أنفسنا من ذلك الخوف المنبعث من أرضية الموت الخفية ، والذى يقودنا إلى خداع النفس ، وحينئذ نتحرر من الأوهام ، وننزع قناع الخرافة .

يوجد إنتاج ضخم من المؤلفات الأدبية عن الموت والاحتضار . إنها فى واقع الأمر تبغى تقديم عون للناس وتشجيعهم على مقاومة العواطف والنزعات المؤذية للجسم والنفس حين تصاحب تلك الحالة . إنها لا ترتكز كما يجب عن الجانب

الآخطر والأهم ألا وهو تفاصيل التدهور الطبيعى أو الانهيار الذى ينتاب جسم الإنسان عندما تقترب النهاية . قد لا نجد ذلك إلا فى بضع صفحات من مجلة متخصصة حين تتناول بالشرح وصفا لحقيقة ما تفعله الأمراض المختلفة عندما تستنزف حيويتنا ثم تفضى إلى إزهاق أرواحنا .

أن مسيرتى الطويلة فى ممارسة مهنتى الطبية وخبرة سنوات العمر المديدة مع المـــوت ، تؤكدان الملاحظة التى أبداها «جون وبستر J. Webster » إذ يقـول : «مـــن المؤكد أن الناس أمامهم عشرة آلاف بابا مختلفا للخروج » أى من الحياة الدنيا . وإنـى لأرجو أن أمد يد العون لاستكمال دعاء الشاعر «رينر ماريا ريلك Rainer Maria Rilkes » يا إلهى ! إعط كلا منا موته ....

لقد اخترت ستة من قائمة الأمراض الشائعة فى عصرنا ، ليس فقط لأنها تتضمن العلل المهلكة التى تدهم الغالبية العظمى من بيننا ، ولكن لسبب آخر لا يقـــل أهمية : إن هـــذه الأمراض الستة لها خصائص مميزة ، تظهـــر سلسـلة آثارها وملامحها على المستوى العالمى ونتعرض لها جميعا عندما ندخل فى سكرات الموت .

أسلحة فرسان الموت

إن توقـــف الدورة الدموية ، وعدم دخول الأكسجين إلى الأنسجة بالقدر الكافى ، وارتجاف ومضات المخ العاملة على أداء وظائفه ، وفشل أجهزة الجسم ، ودمار المراكز الحيوية فيه .. تلك هى الأسلحة التى يحملها بكفاءة واقتدار كل فارس من فرسان الموت . وإن التآلف معها سوف يفسر كيف نموت من الأمراض .. ولكنه ليس على وجه التحديد مجال شرح وتوصيف فى هذا الكتاب . إن الأمراض التى وقع اختيارى عليها ليست هى السبل الشائعة المؤدية إلى الموت وحسب ، بل أنها أيضا طرق ممهدة لكى يطؤها كل إنسان نظر إلى علته الأخيرة حتى ولو كانت نادرة .

لقد ماتت أمى من أثر السرطان بالقولون قبل الاحتفال بعيد ميلادى الحادى عشر بأسبوع واحد . فشكلت تلك الواقعة مجرى حياتى . وكل ما حدث لى من بعد ، بل وأكثر من ذلك : كل ما لم يحدث ، أرى آثاره متعلقة مباشرة – أو على نحو غير مباشر – بالموت . وعندما شرعت فى تأليف هذا الكتاب ، كان أخى قد رحل عن الدنيا من بضعة شهور ، وأيضا من سرطان العمود الفقارى . وفى حياتى الشخصية والتخصصية المهنية ، عشت على دراية بالاقتراب الوشيك للموت على مدى يتجاوز نصف قرن – ولكم اجتهدت وتعبت مع وجوده المستمر طوال تلك الفترة ، خاصة فى السنوات العشر الأولى منها وفى هذا الكتاب أحاول أن أحكى ما تعلمته .

نيوهافن – يونيو ١٩٩٣ شروين . ب . نولاند[١]

New Haven - June 93 Sherwin B. Nuland

تنويه من المؤلف :

باستثناء اسم «روبرت دوماتيس» فإن أسماء كل المرضى وعائلاتهم الواردة هنا قد استبدلت بأسماء مغايرة حفاظا على أسرار الخصوصية . وملاحظة أخرى جديرة بأن تذكر : أن اسم دكتور « دوفو Defoe » الوارد فى الفصل الثامن هو فى الحقيقة توليفة من أسماء ثلاثة أطباء شبان بمستشفي جامعة ييل Yale – نيوهافن – الولايات المتحدة الأمريكية .

(١) د. شروين نولاند : مؤلف كتاب «إلى الأطباء : السيرة الذاتية للطب – Doctors: the Biography of Medicine وهو أستاذ الجراحة وتاريخ الطب بجامعة ييل المحرر بمجلة الطب بولاية كونكتيكت ورئيس مجلس إدارة «صحيفة تاريخ الطب» و«إتحاد العلوم» . ويحتل كتابه «أصول التخدير مكاناً بارزاً فى المكتبة الطبية الكلاسيكية .

obeikandl.com